



قال لي صاحبي: ألا تهاجر؟

قلت: بلى، ولكن إلى الإسكندرية.

قال: عجباً! إن الناس يهجرن المدن إلى الريف؛ حيث الأمان والطمأنينة، وأنت تغادر العاصمة إلى بلد قلق مضطرب؟!

قلتُ: لا تعجب، إن لي بالإسكندرية أقربين ورحمًا دعوتهما إلى القاهرة، فأبواا فلم أجد بُدًّا من صلتهم، وما عذرني وقد روى الشیخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلی الله علیه وسلم قال: ((إن الرحم شَجَنةٌ [1] مِن الرحمن، فقال الله تعالى: مَن وصلكِ وصلته، ومَن قطعك قطعْتُه)), وروى الشیخان أيضًا عن أنسٍ رضي الله عنه، أنه صلی الله علیه وسلم قال: ((مَن أَحَبَّ أَن يُبَسِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيَنْسَأَ لَهُ فِي أَثْرِهِ [2] فَلِيصُلِّ رَحْمَهُ)).

وإني وإن كنتُ أُجِيزُ أن البركةَ هنا معنوية، أرجحُ أن يكون الحديث على ظاهره، وتكون الصلة علامَة على الحفظ وطول العمر، ولا يعارض هذا أن الأمور مقدرة مقضية، وأنه لا تبديل لكلمات الله، والقضاء لا ينافي ربط الأسباب بمسبياتها، وكلُّ مُيسَرٌ لما خُلِقَ له، وليس الحرث على الحياة بمانعٍ من الموت، وليس الإقدام على الموت بمقصر للأجل، وكم رأينا من رجال خاضوا غمار الموت وصمدوا في ميادين القتال، وهذا هم أولاء بيننا أحباب يرزقون! وكم رأينا من أناس فروا من الموت، فسعوا إليه مسرعين كأنهم ما هربوا منه إلا إليه!

ورضي الله عن أبي بكر إذ يقول: احرصن على الموت توهب لك الحياة، ورحم الله خالدا سيف الله المسؤول إذ يقول وهو يحتضر: ما في موضعٍ مِن جسدي إِلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بنبل، وهأنا ذا أموت على فراشي، فلا نامتْ

لقد كان المسلمين أولى بالإقدام والشجاعة والثبات والقوة يوم كانوا يفهمون القدر على وجهه، يعملون ويتوكلون، ويتقدمون ولا يتقاусون، موقنين أن ما شاء الله كان، وما لم يشاً لم يكن، فلما دب فيهم دبيب الضعف، وسعى بينهم ساعي التفرق، وخدعهم أعداء الدين، وحاربوهم بكل ما أوتوا من قوة، بدلاً من الأمان خوفاً، ومن الشجاعة جبناً، ومن التوكل توأكلًا، ومن الجد خمولاً وكسلًا، ولن يُغيِّرَ الله ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم، على أن الحياة أضحتْ رخيصةً، لا تستحق هذا الافتراض البالغ، والاحتفال العظيم، وليس الخوف من الموت ولا بد منه، إنما الخوف من لقاء الله على غير عدة، ومن دون زاد، وإذا كان الموت يُهدِّد الناس في كل لحظة؛ فليأخذ العبد من نفسه، ومن دنياه لآخرته، فليس بعد الموت من مستعتب^[3]، وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

ثم كان ختامُ الحديث أن اتفقنا على أن نكثَرَ من الدعاء النبوِي: ((اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي))^[4].

وجزى الله الشدائِدَ خيراً تجلو صدأ النفوس، وتزيل قسوة القلوب، وتنذر بالله والدار الآخرة، وما أحوجنا إلى العضة والذكرى؛ ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55].

مجلة الإسلام: السنة التاسعة، العدد 23، 6 جمادى الآخرة، سنة 1359هـ، 12 يوليه 1940م.

[1] بوزن قربة؛ أي: قربة مشتبكة، كاشتباك العروق، والمراد: تعظيم الرحم وبيان فضلها وشدة إثم قاطعها.

[2] الأثر: الأجل، قيل: إن هذا كناية عن البركة في العمر، وقد يكون عمر الرجل أربعين وهو خير عند الله وأذكي ممَّن عمر ثمانين، وقيل: إنه على ظاهره، وتكون الصلة أمارَة على ذلك.

[3] أي استرضاء وعمل؛ لأن الأعمال قد انقضت، وبطل زمنها، وبقي الجزاء عليها، وهذا اقتباس من بعض خطبه صلى الله عليه وسلم.

[4] هذا آخر حديث رواه الشيخان، وأوله: ((لا يُتمنى أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا فليقل... إلخ)).